

قصص مهاجرات جنوب الصحراء.. من حلم عبور المتوسط إلى واقع الاستقرار بطنجة

آخر تحديث

مام إشارة المرور لأحد أكبر شوارع مدينة طنجة تقف "باتريسيا" القادمة من نيجيريا، تحضن بين ذراعيها طفلتها لصغيرة، تسافر بعينيها بين وجوه المارة وركاب السيارات، تمدّ يدها لعل الرأفة تدبّ إليهم ليغدقوا عليها بعض دراهم، تسد بها رمقها ورمق طفلتها الصغيرة.

"باتريسيا" نموذج لمئات النساء القادمات من جنوب الصحراء أملا في عبور المتوسط والوصول إلى الضفة لشمالية، لكن لأسباب مختلفة وجدن أنفسهن مستقرات بطنجة، وبقدر ما يطول مكوثهن هنا، بقدر ما تتضاءل وتتلاشى فرص العبور أمامهن، وفي غفلة من الزمن، يجدن أنفسهن مضطرات للتكيف مع الوضع الجديد، خاصة أن لعديد منهن؛ أرامل بأطفال أو هن أمهات عازبات.

ييست هناك إحصائيات دقيقة حول عدد المهاجرين جنوب الصحراء في المغرب، حتى حملة تسوية وضعيتهم لقانونية التي باشرها المغرب سنة 2014، ثم بعد ثلاث سنوات فتح حملة أخرى للتسوية، إلا أن العملية لم تعرف قبلا كبيرا. وتعد طنجة من أقل المناطق إقبالا من المهاجرين على تسوية وضعيتهم، حيث يمثل المهاجرون الذي قدموا طلبات بتراب عمالة طنجة-أصيلة 8.7 في المائة من مجموعات الطلبات التي قدمت في عملية 2014، مما يبوء شمال المغرب المرتبة الثالثة بعد الرباط (27 في المائة) والبيضاء (18 في المائة). بسبب أن أغلب القادمين إلى طنجة، يفعلون ذلك ليكونوا قريبين من الضفة الجنوبية لاسبانيا، وقريبين من السياج الحدودي لمدينة سبتة، حتى بتسنى لهم انتظار فرصة الوصول إلى أوروبا ولا يأبهون بتسوية وضعيتهم هنا، إذ قدرت، مثلا، نسبة محاولات العبور من هذه المنطقة حوالي 75% من مجموع محاولات الوصول إلى أوروبا من شمال المغرب، حسب تقرير لمرصد الشمال لحقوق الانسان لشهر يناير 2018، وذلك إما عبر محاولة اقتحام السياج الحدودي لمدينة سبتة، أو عبر ركوب قوارب لموت.

غالبا ما يغامر الرجال بتجريب محاولة العبور أكثر من النساء، لان العمليتين تستوجبان قوة بدنية وقدرة على لتحمل، سواء عبر اقتحام السياج الحدودي أو عبر ركوب الأمواج، مما يجعل النساء والأطفال أكثر اضطرابا لاستقرار بطنجة بسبب صعوبة العبور، إما استقرا ناهيا، او في انتظار فرصة العبور في شروط أكثر آمانا، بينما عبور الرجال لطنجة هو عبور مؤقت، غالبا ما ينتهي بالنجاح في العبور، أو الوقوع في أيدي شرطة الحدود، أو لقاء سوء المصائر؛ الغرق في عرض المتوسط، فقد سجل شهر فبراير 2018 نجاح ما يقارب 280 مهاجر غير نظامي في لوصول إلى أوروبا انطلاقا من الشمال، بينما لقي 33 شخصا مصرعهم حسب إحصائيات مرصد الشمال لحقوق الإنسان لشهر فبراير.

إذا كانت النساء هن المعنويات أكثر من أقرانهن الرجال بالاستقرار في طنجة، سواء عن اختيار أو عن اضطرار لعدد قدرتهن على المغامرة في مثل هذه الظروف، إذ سجل تقرير مرصد الشمال لحقوق الإنسان، نسبة 3% من النساء فقط من أصل مجموع محاولات الوصول إلى أوروبا، مقابل 1% للقاصرين، و96% رجال. مما يعني أن النساء والأطفال الصغار هم المعنيون أكثر بالاستقرار بطنجة، خاصة وأن عملية التسوية الاستثنائية الإدارية للأجانب في وضعية غير نظامية في 2014 كانت قد قررت في مرحلة الطعون قبول جل الطلبات المقدمة من طرف النساء المهاجرات مما ساهم في تسوية وضعية 14000 امرأة. وفي 27 مارس 2018، قررت اللجنة الوطنية للطعون اعتماد معايير أكثر مرونة لتسوية أوضاع المهاجرين بالمغرب وخاصة النساء حيث ستستفيد من عملية التسوية الاستثنائية "النساء وأبنائهن" و "الأجنبيات المتزوجات أو الأجانب المتزوجون من مغاربة أو من أجانب في وضعية إدارية قانونية، بغض النظر عن مدة الزواج"، بحسب بيان للجنة. إي ما يعادل 13000 امرأة مهاجرة ستستفيد من التسوية من خلال هذا القرار الجديد، وسيصبحن في وضعية إدارية قانونية. لكن ماذا عن ظروفهن الاجتماعية وكيف وصلن إلى مدينة طنجة؟ وما هي الأوضاع التي يعيشنها هنا؟

رحلة عبور الصحراء

بالنسبة إلى المهاجرين من جنوب الصحراء الذين يصلون إلى المغرب بصفة عامة، يأتون عبر مسارين اثنين: هناك المهاجرون القادمون من دولة السنغال والذين يصلون إلى المغرب جوا، لذلك فحلم الهجرة بالنسبة إليهم مرتبط بتوفير ثمن تذكرة السفر عبر الطائرة إلى المغرب، من بعد لا يعودون إلى وطنهم، يستقرون في المغرب بحثا عن فرصة العبور إلى أوروبا، أو يضطرون للاستقرار هنا بالمغرب، ويشكل المهاجرون القادمون من السنغال ما يقارب 24.3% من مجموع جنسيات المهاجرين بالمغرب، حسب الإحصائيات الرسمية لحملة تسوية الوضعية سنة 2014 وغالبا ما يجد مواطنو السنغال سهولة أكبر من أقرانهم من بلدان أخرى في الاندماج والبحث عن العمل، أو ممارسة نشاط تجاري شخصي، وذلك بسبب عامل اللغة، إذ أن الفرنسية لغة متداولة بالمغرب أكثر من الانجليزية والمنحدرين من الدول الإفريقية الانجلوفونية يجدون صعوبات أكثر في التواصل.

"ميمي" شابة سنغالية في عقدها الثاني، صادفناها في احد أسواق منطقة بني مكادة الشعبية بطنجة، تبيع مستحضرات تجميل مصنعة من الأعشاب وبعض عقائق التزيين، تقول أن هذه السلع تلقى رواجا لا بأس به من لزبناء المغاربة، وتقوم باستقدام هذه المواد من بلدها السنغال، ثم تقوم بإعادة بيعها هنا بالمغرب، "ميمي" حاصلة على شهادة البكالوريا في بلدها، اضطرت للقدوم إلى المغرب بحثا عن العمل في "مراكز الاتصالات"، لكن عند وصولها إلى المغرب وجدت الوضع أكثر تعقيدا مما تصورت، إذ كان لزاما عليها أن تحصل على أوراق الإقامة أولا وهو ما لم تنجح فيه لحد الآن، فاضطرت أن تتنازل عن حلمها، وتعمل في امتهان بيع التجول في الأسواق، في انتظار أن تنجح في تسوية وضعيتها، أو أن تلوح لها فرصة العبور إلى أوروبا.



ما المسار الثاني الذي يقطعه المهاجرون المنحدرون من جنوب الصحراء، يأتي عبر تلك الرحلة الطويلة التي تنطلق من بلاد المنشأ لتصل إلى النيجر أو مالي، ومنها إلى مدينة "تمنراست" الجزائرية، حيث تعد المدينة مفترق طرق للهجرة، فجزء من المهاجرين الذين يصلونها يتجهون شرقاً إلى الأراضي الليبية، وجزء منهم يتجه إلى الشمال لجزائر العاصمة أو إلى الغرب في اتجاه الجنوب الشرقي المغربي. قد تطول هذه الرحلة وقد تقصر حسب الظروف وحسب الإمكانيات المادية لكل واحد. ووفق الشهادات التي استقينها، فإن معدل الوقت الذي تستغرقه الرحلة للوصول إلى المغرب يقارب 3 أشهر. "باترسيا" جاءت من دولة نيجيريا ضمن مجموعة من 8 أشخاص، بينهم نساء ورجال: "انطلقنا من نيجيريا عبر النقل البري إلى دولة النيجر، بعد ذلك ظللنا في دولة النيجر نبحث عن يقلنا إلى لحدود الجزائرية، ثم مدينة "تامنراست"، ومنها إلى الجزائر العاصمة، ثم مغنية، ثم الدخول إلى المغرب عبر وجة". طوال هذه الرحلة قد يتعرضون لهجمات قطاع الطرق، ولعمليات النصب والاحتيال، خاصة عند بحثهم عن وسيلة نقل تقلهم من منطقة إلى أخرى، تحكي باترسيا بغصة في حلقها: "في الحدود بين النيجر والجزائر، دفعنا 300 أورو لأشخاص لكي يوفروا لنا وسيلة نقل تقلنا إلى داخل الأراضي الجزائرية، اتفقنا على الصفقة والتمن، لكن بعد ذلك تعرضنا للنصب، أو بالأحرى للسرقة في واضحة النهار، لم يكن بوجدنا أن نعمل شيئاً، إذ بدا لنا أن هؤلاء رجال مسلحون، يمتهنون النصب على المهاجرين بهذه الطريقة"

بين الاستقرار في المغرب والإصرار على عبور المتوسط

كل الشهادات التي استقينها ونحن نعد هذا الاستطلاع تُجمع على أن الرغبة الأساس كانت هي الوصول إلى أوروبا. لكن من هؤلاء المهاجرات من اقتنعن بالتنازل على هذا الحلم، والتعايش مع واقعهن الجديد، وثمة منهن من مازلن متشبثات بتحقيق حلمهن، "باترسيا" رغم مرور 10 سنوات على تواجدها بالمغرب، أنجبت خلال هذه السنوات ثلاثة أبناء (طفلان وطفلة) إلا أنها مازالت مصرة على تحقيق حلمها بالوصول إلى أوروبا، خاصة أن زوجها حسب إفادتها معتقل في السجون الإسبانية، حيث تم اعتقاله بطنجة من طرف الشرطة المغربية، وتم تسليمه إلى السلطات الإسبانية بناءً على مذكرة بحث، تتهمه بتنظيم الهجرة السرية من طنجة إلى إسبانيا، وهي التهمة التي تنفيها "باترسيا"، وتتساءل: "لو كان زوجي حقا يعمل على تنظيم الهجرة السرية، لكان هجر أبناءه وزوجته أولاً، بدلا من أن يتركهم هنا دون أوراق ولا قانون ولا وضع اجتماعي مناسب".



على عكس "باتريسيا"، حسمت "جوي" تقريبا أمرها بالاستقرار في المغرب، خاصة أنها حصلت على أوراق الإقامة منذ 4 سنوات، ولها طموح لفتح مشروع صغير يدر عليها كلفة لقمة العيش، "حالياً لا أفكر بتاتا عبور البحر للوصول إلى أوروبا، لقد غادرت هذه الفكرة بالي تماما، يمكن أن أزور أوروبا لكن عبر الطائرة وليس بحرا، كرهت البحر بسبب عدد الضحايا من زملائي وزميلاتي الذين التهمهم، وإذا قُدِّر لي يوما أن أصل إلى أوروبا فسأصل إليها عبر الطائرة، إن لم استطع فأنا أتنازل عن هذا الحلم، وأعوض عن ذلك برعاية طفلاي، وتدريسهما، ليكونا ملاذي في المستقبل".

متاعب لقمة العيش وتدريس الأطفال

تعيش أغلب نساء جنوب الصحراء معاناة تدبّر لقمة العيش لهن ولأطفالهن، فالنساء هن المسؤولات أساساً على لقمة العيش، إذ أن الأزواج قد يكونوا غادروا دون رجعة، أو أفضت بهم مغامرة عبور البحر إلى الغرق أو الاحتجاز، لتظل النساء هنّ من يتحملن مسؤولية الأسرة الصغيرة، عليهن أن يضمنن لقمتهن ولقمة صغارهن، أغلبهن يمتهنّ التسول أمام إشارات المرور وأمام أبواب المساجد وبعض المحلات التجارية، وبعد أن تتلقف أيديهن بعض الدارهم، يعدن للالتقاء مع بعضهن في مقر إحدى الجمعيات الخاصة بمهاجري جنوب الصحراء، قليل منهن يفلحن في إيجاد فرصة عمل، لكنهن لا يعملن إلا تحت الاضطرار، نظرا لقلّة فرص الشغل، وتدني الأجور، وأيضا للاستغلال الذي يتعرضن له "امتتهن الحلاقة والتجميل، اشتغل مع بعض الصالونات، لكن بأجر زهيد، اشعر أنني أتعرض لاستغلال بشع، إذ أقود بتصفيف الشعر لزبونة ما بما يقارب 500 درهم، غير أن الجزء الأكبر من المبلغ يذهب إلى جيب صاحبة الصالون بينما لا يتجاوز نصيبي 50 درهما من العملية"، هكذا عبرت "جوي" عن معاناتها مع العمل، فرغم أنها سوّت وضعيتها سنة 2014، إلا أن الولوج إلى العمل صعب جدا خاصة في بلد تُعتبر أرقام البطالة فيه مرتفعة جدا، حلم "جوي" هي أن تنجح في فتح صالون خاص بها، أن تعمل لحسابها وليس لحساب صاحبة الصالون.

ليس إيجاد العمل وتوفير لقمة العيش هو ما يؤرق مضجع مهاجرات جنوب الصحراء فقط، بل أيضا تدرس أبنائهن فأغلب الشهادات يؤكدن أنه يجدن صعوبات كبيرة في تسجيل أطفالهن في المدارس العمومية، إما لأنهن لا يمتلكن أوراق الإقامة والوثائق الثبوتية، أو بسبب المضايقات والعبارات العنصرية التي يواجهها أطفالهن في المدارس العمومية حيث الاكتظاظ، خاصة في الأحياء الشعبية التي تعتبر مأوى هؤلاء النساء، فيضطر أغلبهن للبحث عن موارد مالية تتيح لهن تسجيل فلذات أكبادهن في المدارس الخاصة، حيث الاكتظاظ اقل، وحيث النظام الداخلي لهذه المؤسسات تسمح بمراقبة اشد للتلاميذ، كما أن تلاميذ هذه المؤسسات ينحدرون من أوساط ميسورة أو متوسطة، يمكن لهم أن يتكيفوا مع وجود أطفال مختلفين عنهم في اللون واللغة، عكس المدارس العمومية التي تحتضن أطفال الفقراء وضحايا التهميش، فترتفع نسب العنف والعنصرية.

بين الحلم الذي ضاع، أو هو على وشك أن يصير كذلك، وبين هاجس توفير لقمة العيش، ومقعد الدراسة لفلذات أكبادهن، تعيش "باتريسيا" و"جوي" والأخريات من مهاجرات جنوب الصحراء بطنجة صامدات في انتظار الأفضل بشهرن أظافرهن في وجه الزمن، محاولة منهنّ لنسيان ما مضى والتطلع إلى ما سيأتي، وتفادي تحرشات العنصرية.

التي يغدقها بعض المغاربة على مهاجري جنوب الصحراء.

محمد المساوي

نجز هذا الريبورتاج في إطار برنامج "أصوات المهاجرين الأفرقة"، المدعم من مؤسسة
"أنترناسيونال ميديا سيپورت" (IMS)